تعليق على مشروع المليونير الفرنسي فنسنت بولير في غرب افريقيا

في عام ٢٠٠٨ حينما وقفت لاول مره في الملتقي المركزي للسكك الحديديه التي تتوسط قلب مدينة اطلنطا عاصمة ولاية جورجيا في الولايات المتحده الامريكيه حيث تلتقي كل القطارات العابره من كل الجهات في بناية واحده لا تفصلها عن بعضها الا الطوابق و الخطوط المتوازيه

وكما قد يثير الفضول اي انسان للتساؤل عن القوة التي بنى ابو الهول حينما يقف عند وسط اهرامات الجيزه المصريه اثارني رغبة التساؤل عن قوة الاقتصاد وعظمة الفكره التي ارسى هذا الصرح الشامخ

شعرت في تلك اللحظه وكانني اقف في وسط الشمس وحولي الاشعه جيئة وذهابا من كل صوب والناس كاسراب من الطيور الراحله ذلك ما قد جعلني ان ابقى معظم اليوم متجولا هناك كنت اقول ساعتها لنفسي ان الشمس ميدانها الحقيقي في القارة السمراء حيث المدن نائيه والاراضي مفتوحه والبيئات متنوعه والناس محصورون في بقعات لعدم توفر وسائل المواصلات المناسبه

تصورت بقعة في وسط افريقيا انها قلب الشمس حيث كنت اقف في الشاطئ الشمالي الشرقي لبحيرة تشاد ثم اخرجة ورقة وقلم وبدات ارسم قارة افريقيا ووضعة دائرة مركزيه حيث اقف مدة اشعة جنوبا الى جيبوتي وشمالا الى داكار ثم اخرى غربا الى الكاب وشرقا الى الاسكندريه

من بعد الخطان المتقاطعان في الوسط مددت الخطوط الجانبيه التى تملع قواطع الدائره حيث كل خط تمتد لتربط بعد نائي في طرف الدائره بالمركز من بعد ذلك رسمت خطوطا دائريه عابره للخطوط الافقيه كما تنطلق الاشعه من بقع ثم تنعكس لتسقط في بقعة اخرى وهكذا ترتد في انعكاسات متشابكه لترسم شبكة تخطي كل مساحة الدائره

نظرة في تمعن الى الخلاصه النهائيه لتلك الرسمه فوجدة حقا ان مابين يدي هو الشمس بشكله الاهليجي تصورت لو ان نهايات الخطوط موانيئ وكل الملتقيات بين الخطوط الافقيه والدائريه اسواق ومحطات ومراكز انتاج تخيلت ان الناس ممكن ان ياتون من اي مكان الى اي مكان في افريقيا عبر هذه الخطوط الخياليه

تخيلت ساعتها كم من السفن سترسوا كل يوم عند نهايات كل تلك الخطوط بل كم من السفن تبحر نحو عالم مجهول الحدود القيت بنظرات غارقه نحو الصورة التي غدة كشبكة العنكبوت تخطي ارجاء القارة السمراء من البذور الى الصفق المتساقط في محب الريح وسالت نفسي ثالثا هل ستعود السفن التي افرغت حمولاتها فارغه لان الذين ينتجون الفواكه واللحوم في المعامل المجهريه سوف لن يكلفون انفسهم مشقة النقل والتكاليف ثم اجبت في تحد ان افريقيا ليس الغابات والحيوانات فقط بل في احشائها اعظم من ذلك بكثير

نشرة الصوره في صفحاتي الالكترونيه كاسلوب اعطباتي واحتفظة بنسخة منها في مخزني الالكتروني ليس ياسا من محاولة طرح مشروع كهذا كنوع من التسليه اللاموضوعيه ولكن في الواقع ليس هذا حتى في نطاق الاحلام لاي شخص في قارة لازال المتمدنون من سكانها يحلمون بامتلاك الواح من الاخشاب تجرها الحمير في حين ان للحمير منظمات تحمي حقوقها في اجزاء من هذا العالم

لم اكن قدنسيت الامر ولكنني تجاهلته عن قصد لعدم موضوعيته ولكن بعد سبعه سنوات من ذلك اليوم وبينما كنت استمع الى تلفزين فرنسا ٢٤ المتصل بمحطة الحياة للقنوات الفضائيه برزت انثى رائعه بيدها تقريرا هو الاشد روعة وجمالا موضوع التقرير عن مشروع للسكك الحديديه تنفذه مجموعة المليونير الفرنسي فنسنت بولوريه المشروع تربط خمسه دول في غرب افريقيا

رغم متابعتي واهتماماتي بالتطورات في افريقيا لم يهن لي فرصة الالمام بماهية هذا الحلم الطويل ولكن بعدها صدقت مقولة ان كنت نائما تحلم تاكد ان هناك من هو صاحيا يعمل مشروع الخط الازرق هذا المشروع العملاق من كل النواهي وان كان حلما مستحيلا عندي فقد اصبح واقعا لتمثل شتلة نامي غرزة لتجسد غابة كبيره ونحن في افريقيا اهل الغابات وساكنيها ولو كنا في قلب ام الصحارى

ان الاشياء الكبيره لايمكن ان تقوم دون نقد ونعم هنالك انتقادات لهذا المشروع الكبير ولكنها في الواقع ليست انتقادات موضوعيه وقد تركزة حول تعليلات لا تتماشى مع السلوك الاقتصادي للعالم الراهن في وقت ان حتى الدول الاكثر تقدما تسعى لجلب رؤس الاموال الاجنبيه الى اوطانها وتيسير كل الوسائل لها لفتح المشاريع الاستثماريه

افريقيا المثال للفقر في العالم هي تماثل امريكا المثال للتقدم في العالم في كل شيئ لايفرق بينهما الا هذه عشقت البؤس والتخلف وتلك امنت بسبيل الرقي والتقدم ان اهم وريد يرجع له الفضل في حياة امريكا ولازال يراهن عليه بلا منازع هو السكك الحديديه وهذه هي اللعبه التي يجب ان تجيدها افريقيا كاول وثبه على ناحية التقدم

نعم ان هذه خطوة استراتيجيه نحو حقيقة افريقيا الاقتصاديه لان افريقيا تختزن الكثير من المتطلبات الاشد الحاحا للاقتصاد العالمي وهي تمثل القارب السهري لانقاذ افريقيا من اعماق المغاره والنفق الوهمي الذي لازال يتجول في داخلها نحن لايمكننا ان نستغل محتويات هذا الكنز دون تدخل موضوعي منسق للقوى الدوليه من اي مكان مساعدة ومسانده من اجل الكسب والربح المباشر نحن متسولون ايدينا ممدوده في كل مكان من العالم بينما نحن نمتلك كل ما يحتاجه العالم لما لا نقدم لهم ما يحتاجون مقابل ما قد نحتاجه نحن

لانه مهما طال ذلك لايمكن فعل شيئ دون تدخل الاخر الا وكان هنالك تدخل عشوائي ودون فائدة لاهل الحق كما قد حدث سابقا عبر التاريخ وكما يجري الان في العديد من الدول دون علم سلطاتها الضعيفه او لعنعدام السلطة فيها او على علم ومراى سلطاتها كل هذا تحدث نسبة لعدم القدرات الواقعيه للشعوب فلما لا نتعاون مع العالم كله الان بمثل هذه الاساليب الهادئه الواضحه والاكثرفائده

لقد تركزة انتقادات المنتقدون لمثل هذه المشاريع في افريقيا على نقاط بعينها مثلا عودة الاستعمار بشكل جديد و اخذ او سرقة المخزونات والمنتجات الافريقيه مثل اليورانيوم والكاكاو وغيرها وهم يقترحون بافضلية المستثمرون المحليون على المستثمر الوافد تلك مثل الاصرار على ارضاع الطفل على ام لا تمتلك من الحليب ما يكفي الطفل حتى الموت ان معظم صراعاتنا في افريقيا هي بسبب تقاسم الفوائد سواء كان في محيط السلطه المركزيه او المحليه لم يظل في افريقيا ليس هنالك رجل اعمال من صنف الممول للمشاريع الدوليه الذي يمول المشاريع الضخمه طويلة الامد ومثل هؤلاء تمولهم دول عظمى وليسوا لمجرد افرادا مستثمرون فقط

ان المستثمرون الوافدون يبحثون عن الفائده في ظل عالم مفتوح وهم غالبا يمثلون اثتثمارات دول بعينها ونحن نريد الفائده بل محتاجون للفائده والا اين سنذهب بمنتجاتنا اذا لم نتعامل معهم بمثل هذا الاسلوب ومالذي يفيدنا منه لطالما بقي في باطن الارض بينما نحن نموت من فوقها جوعا لندفن معها والانجح منا يفر من الجوع والفقر ليغرق في البحر والاسعد حظا من وصل الى ما وراء البحار ليقضي انكد لحظات حياته ومن الذي قال لكم ان كل من وصل الى ما وراء البحار سيعيش سعيدا

ان العالم اليوم ليس هو ذلك العالم قبل ثلاثه قرون ولم يكن قد رحل عنه شيئ الى مكان خارجه ولكن كل شيئ ليس هو ذلك الذي كان ان الدول التي نمت وتقدمت منذ ذلك الوقت او استطاعت استخدام كل اصناف مواردها او حتى موارد الاخرون لم تنجح في ذلك الا من خلال تعاونها الجيد مع الاخرون ولو ليس من الممكن تكرار استخدام نفس ادوات النجاح اليوم ولكن هنالك ماهو اكثر تناسبا من الادوات لهذا اليوم وان الانفتاح الاقتصادي لايعني فتح فرص الاستعمار ونرجو الا يكون الاحداث التاريخيه العتيقه عقد وعقبات على طريق تقدم الاجيال عبر التاريخ

ع٠م٠سليمان ٢٥فبروري٢٠١٦